أثر إقرار الحرية الدينية في حفظ كلية الدين

د. كمال لدرع

جامعة الأمير عبد القادر-قسنطينة

مرتبة الدين من الكليات الضرورية:

المقصود بالكليات الضرورية[1] هي العناصر التي تتشكل منها المقاصد الضرورية، وهي أساس قيام حياة البشر، واستقامة معاشهم، وسلامة نظامهم؛ والمحافظة على المقاصد الضرورية يكون من خلال المحافظة على هذه الكليات؛ وقد ذهب جمهور علماء الشريعة على أن الكليات التي أوجبت الشريعة المحافظة عليها خمسة، وهي: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال.

فالمقاصد الضرورية هي أعلى أنواع المصالح، وهي تشمل مصالح الدنيا والآخرة. وإن التهاون في تحصيل هذه المقاصد يعرض الأمة الإسلامية في الدنيا إلى فساد عظيم، وخراب كبير بحيث تسود الفوضى، ويفتقد النظام، وينتشر الهرج والتقاتل بين أفرادها، وتصير حياة الأمة شبيهة بمجتمع الغاب، فلا أمن ولا سلام

---

[1] - عرفها الإمام الشاطبي بقوله: ((فأما الضرورية فمعناها أنها لابد منها في قيام مصالح الدين والدنيا بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة بل على فساد و تهارج و فوت حياة ، و في الأخرى فوت النجاة و النعيم و الرجوع بالخسران المبين)) (الشاطبي، الموافقات، ج:2، ص:08). وعرفها الإمام ابن عاشور : " فالمصالح الضرورية هي التي تكون الأمة بمجموعها و آحادها في ضرورة إلى تحصيلها بحيث لا يستقيم النظام بإطلالها بحيث إذا نخرمت تؤول حالة الأمة إلى فساد وتلاش)).(ابن عاشور، مقاصد الشريعة، ص:79). وعرفها و هبة الزحيلي : " هي التي يتوقف عليها حياة الناس الدينية والدنيوية ، بحيث إذا فقدت اختلت الحياة في الدنيا، وشاع الفساد و ضاع النعيم الأبدي و حل العقاب في الآخرة)).(وهبة الزحيلي، أصول الفقه، ج:2، ص:1020.) وعرفها عبد الوهاب خلاف : ((فأما الأمر الضروري : فهو ما تقوم عليه حياة الناس ولابد منه لاستقامة مصالحهم ، وإذا اختل نظام حياتهم ولم تستقر مصالحهم ، وعمت فيهم الفوضى والفساد)). (عبد الوهاب خلاف، أصول الفقه، ص:199)

ولا نظام، هذا في الدنيا، أما في الآخرة فاستحقاق عذاب الله تعالى والحرمان من نعيم الجنة كجزاء على تفويت مصلحة الدنيا، وفي ذلك يقول ابن عاشور مبينا ما يصيب الأمة من جراء الإخلال بالمصالح الضرورية:" ولست أعني باختلال نظام الأمة هلاكها واضمحلالها، لأن هذا قد سلمت منه أعرق الأمم في الوثنية والهمجية، ولكني أعني به أن تصير أحوال الأمة شبيهة بأحوال الأنعام بحيث لا تكون على الحالة التي أرادها الشارع منها.... وقد يفضي بعض ذلك الاختلال إلى الاضمحلال الآجل بتفاني بعضها ببعض، أو بتسلط العدو عليها إذا كانت بمرصد من الأمم المعادية لها أو الطامعة في استيلائها عليها"[1].

كما بين العلماء أن تحديد الكليات الضرورية في هذه الخمسة كان عن طريق استقراء واسع لأدلة الشريعة وأحكامها وتصرفاتها، وفي ذلك يقول الإمام الشاطبي:(ولم يثبت لنا ذلك بدليل معين، ولا شهد لنا أصل معين يمتاز برجوعها إليه، بل علمت ملاءمتها للشريعة بمجموع أدلة لا تنحصر في باب واحد)[2].

وهو ما عبر عنه الآمدي بقوله:(فإن حفظ هذه المقاصد الخمسة من الضروريات، وهي أعلى مراتب المناسبات، والحصر في هذه الخمسة أنواع إنما كان نظرا إلى الواقع والعلم بانتفاء مقصد ضروري خارج عنها في العادة)[3].

بمعنى أن كل كلية من هذه الكليات الضرورية لم تستفد من دليل خاص، وإنما من أدلة كثيرة مبثوثة في أبواب الشريعة وقواعدها العامة. وسعة الأدلة التي ثبتت بها هذه الكليات يجعلها ترتقي إلى مرتبة القطع.

---

[1]. ابن عاشور، محمد الطاهر، مقاصد الشريعة الإسلامية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، والشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط سنة 1985م،ص:79.

[2]. الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت، لبنان،ج:1، ص:38و39.

[3]. الآمدي، الأحكام في أصول الأحكام، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ط1، سنة1405هـ/1985م ،ج:3، ص:240و245.

والدين هو أعلى هذه المقاصد الضرورية، وأقواها مصلحة، لذلك وجدنا كثيرا من العلماء عند ذكرهم للكليات الضرورية وترتيبهم لها يجعلون الدين في مقدمتها، فالإمام الغزالي يرتبها كالآتي:" الدين والنفس العقل والنسل والمال"، وفي ذلك يقول عند تعريفه للمصلحة الشرعية:" ولكنا نعني بالمصلحة المحافظة على مقصود الشرع، ومقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة، ودفعها مصلحة "[1]، والإمام الآمدي لما تعرض للكليات الضرورية في باب القياس في مسألة الترجيح بين الأقيسة لم يلتزم منهج الغزالي، وقدم النسل على العقل، واستبدله بكلمة " النسب "، فقال:" وعلى هذا أيضا يكون المقصود في حفظ النسب أولى من المقصود في حفظ العقل والمال لكونه عائدا إلى حفظ النفس"[2].

وتظهر أهمية هذا الترتيب في الترجيح بين هذه الكليات الضرورية، فعند التزاحم أو التعارض بينها، ولا يتأتى للمسلم أن يحصل جميع مصالحها، وجب عليه أن يقدم الأقوى مصلحة، فلو تعارض حفظ الدين مع حفظ المال أو النفس وجب على المسلم أن يضحي بماله أو بنفسه من أجل حماية دينه وعقيدته، قال تعالى: ﴿**إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله**﴾[3].

ويلاحظ أن الشريعة الإسلامية اعتنت عناية خاصة بالدين، ويتجلى ذلك من خلال الأحكام المختلفة والكثيرة التي شرعتها، فأوجبت المحافظة عليه، والاعتناء به، كما حرمت التهاون والإخلال ولو ببعض أحكامه، دون تمييز بينها، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم:" **إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد**

---

[1] . الغزالي، المستصفى من علم الأصول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2. ،ج:1، ص:286و287.

[2] - الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، ج: 4، ص:495.

[3] - الحجرات، الآية:.15

حدودا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها"[1].

كلية الدين محافظ عليها في جميع الملل:

إن الكليات الضرورية وبخاصة كلية الدين حافظت عليها جميع الملل والشرائع السابقة، ولما جاء الإسلام أكد على وجوب المحافظة عليها، قال أبو حامد الغزالي:(وتحريم تفويت هذه الأصول الخمسة والزجر عنها يستحيل أن لا تشتمل عليه ملة من الملل وشريعة من الشرائع التي أريد بها إصلاح الخلق، ولذلك لم تختلف الشرائع في تحريم الكفر والقتل والزنا والسرقة وشرب المسكر)[2]، وقال الآمدي:(فإن كان أصلا فهو الراجع إلى المقاصد الخمسة التي لم تخل من رعايتها ملة من الملل ولا شريعة، وهي: حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال)[3]، وهذا المعنى أكده الشاطبي بعد هؤلاء فقال:(فقد اتفقت الأمة بل سائر الملل على أن الشريعة وضعت للمحافظة على الضروريات الخمس، وهي: الدين والنفس والنسل والمال والعقل، وعلمها عند الأمة كالضروري)[4].

مسالك الشريعة في حفظ كلية الدين:

استخلص الإمام الشاطبي من خلال نظره في الشريعة أنها انتهجت مسلكين اثنين للمحافظة على كل كلية من الكليات الضرورية، وهما: حفظها من جانب الوجود، وحفظها من جانب العدم. قال رحمه الله:" والحفظ لها يكون بأمرين، أحدهما: ما يقيم أركانها ويثبت قواعدها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود ... والثاني (أي المسلك الثاني) ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع

---

[1] – حديث حسن رواه الدارقطني وغيره عن أبي ثعلبة الخشني جرثوم بن ناشر، وهو الحديث الثلاثون في الأربعين النووية للإمام النووي.

[2] . الغزالي، المستصفى، ج:1، ص:288.

[3] . الآمدي، الأحكام في أصول الأحكام، ج:3، ص:240و245.

[4] . الشاطبي، الموافقات، ج:1، ص:38.

فيها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم"[1]. وبالتالي يتوجب على الأفراد أن يحافظوا عليها من الجانبين معا اللذين هما متكاملان.

وقد بين ابن عاشور أن حفظ الكليات الضرورية بطرقها الشرعية مسؤولية فردية، ومسؤولية جماعية، كما أن حفظها يكون لآحاد الأمة، وبالنسبة لعموم الأمة من باب أولى[2].

فطرية الممارسة البشرية للدين:

إن الدين عقيدة راسخة في كيان الإنسان ووجدانه, فهو الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها, كما قال سبحانه (**فأقم وجهك للدين حنيفا, فطرة الله التي فطر الناس عليها, لا تبديل لخلق الله, ذلك الدين القيم, ولكن أكثر الناس لا يعلمون**)[3]، وفي الحديث أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ:" **أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا**"[4]، أي: إني خلقت عبادي ميالين بطبيعتهم إلى الحق, فجاءت الشياطين فحولتهم من الحق إلى الباطل, ومن الخير إلى الشر.

وللأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله كلام نفيس عن حاجة الإنسان إلى الدين، فهو يقول ما خلاصته: "في الطبع الإنساني جوع إلى الاعتقاد كجوع المعدة إلى الطعام, ولنا أن نقول: إن الروح تجوع كما يجوع الجسد, وان طلب الروح لطعامها كطلب الجسد لطعامه. حق لا يقبل الجدل أن الحاسة الدينية بعيدة الغور في طبيعة الإنسان. وحق لا يقبل المراء أن الإنسان يجب أن يؤمن, ولا يستقر في وسط هذه

---

[1] - الشاطبي، الموافقات، ج:2، ص:08.

[2] - ابن عاشور، مقاصد الشريعة، ص:80.

[3] - الروم، الآية:30

[4] - أخرجه مسلم في صحيحه عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها أهل الجنة، رقم الحديث:5109.

العوالم بغير إيمان... وهو قد وجد في وسط هذه العوالم لا مراء, فإذا كان الإيمان هو الحالة التي يتطلبها منه وجوده, فضعف الإيمان شذوذ يناقض طبيعة التكوين, ويدل علي خلل في الكيان. ثم يقول رحمه الله: وقد اتفق علماء المقابلة بين الأديان, على تأصل العقيدة الدينية في طبائع بني الإنسان من أقدم أزمنة التاريخ"[1].

التأصيل الشرعي للحرية الدينية[2]:

لما كان الدين عقيدة راسخة في كيان الإنسان فقد رفض الإسلام الإكراه عليها، فلا تباع ولا تشترى، لأنها مرتبطة بالقلب وبالذات الإنسانية، وما كان كذلك لا سلطان لشيء من القوي الخارجية عليه.

والقرآن الكريم يؤكد هذه الحقيقة في قوله تعالى:(**لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغيث فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم**)[3].

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية الكريمة أن رجلا من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له الحصين دخل في الإسلام، وكان له ولدان نصرانيان، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم: ألا استكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية، فأنزل الله فيه ذلك[4].

كما ذكر القرآن الكريم في آيات متعددة أن الرسل عليهم الصلاة والسلام وظيفتهم: التبليغ والتذكير, والتبشير والإنذار, والنصح والإرشاد وليس من وظيفتهم إجبار الناس أو إكراههم على الإيمان بما جاء به هؤلاء الرسل الكرام من عند ربهم . عز وجل . قال تعالى:(**وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين, فمن**

---

[1] - عباس محمود العقاد، الله، ص:14.

[2] - .محمد سيد طنطاوي، شيخ الأزهر، الحرية الدينية في الشريعة الإسلامية عن موقع www.amcoptic.com

[3] - البقرة، الآية:256.

[4] - ابن كثير، أبو الفدا اسماعيل، تفسير القرآن العظيم، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط 7، سنة 1405هـ/1985م، ج:1، ص:551.

آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[1]. كما نهى القرآن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن إكراه أحد من الناس في الدخول في الإسلام، قال تعالى: (**ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**[2]، **وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله، ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون**)[3].

كذلك من الآيات التي قررت أن الرسول ـ صلي الله عليه وسلم ـ وظيفته التبليغ والإرشاد والنصح وليس من وظيفته الإكراه والإجبار، قال تعالى:(**فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر**)[4]. وقوله تعالى:(**وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب**)[5]، وقوله ـ سبحانه(**فإن اعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ..**)[6]. وقوله عزّ وجل: (**إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين**)[7]. وهكذا نجد أن كثيرا من الآيات القرآنية تصرح بأن وظيفة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووظيفة الرسل من قبله، هي التذكير والنصح والإرشاد والتبليغ, وليس الإكراه والإجبار والإلزام.

---

[1] – الأنعام، الآية:48.

[2] – والمعنى: لو شاء الله لآمن أهل الأرض كلهم جميعا دون أن يتخلف منهم أحد, ولكن حكمته تعالى شاءت أن يوجد الشرك والتوحيد, والكفر والإيمان, وأن يحذر سبحانه من الشرك وان يحض على الإيمان,ثم بعد ذلك من أشرك أو كفر فعليه عقوبة ذلك, ومن آمن فله ثواب إيمانه. والاستفهام في قوله ـ سبحانه ـ "أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين" للإنكار، والمعنى هل أنت يا محمد صلى الله عليه وسلم في وسعك أن تكره الناس على الإيمان؟ لا ليس في وسعك ذلك ـ ولا في وسع الناس جميعا ـ بل الذي في وسعك هو التبليغ والنصح والإرشاد.

[3] – يونس، الآية:99-100.

[4] – الغاشية، الآية:21-22.

[5] – الرعد، الآية:40.

[6] – الشورى، الآية:48.

[7] – القصص، الآية:56

وصدق الله إذ يقول:(**نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد**)[1].

إن الإكراه على الدين لا يأتي بمؤمنين صادقين وإنما يأتي بمنافقين كاذبين، لذا وردت عشرات الآيات القرآنية في ذم النفاق والمنافقين، وفي تحذير المؤمنين الصادقين من مكرهم وشرورهم، ومن هذه الآيات قوله تعالى:(**ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا, وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا, ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون**)[2]. وقال تعالى:(**إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالي يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلي هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا**)[3].

ومن هذه الآيات الكريمة يتبين لكل ذي عقل سليم، أن الإكراه على الدين يتنافى مع أحكام شريعة الإسلام، التي لا تعترف إلا بالعقيدة التي يتحلي بها صاحبها عن طواعية واختيار واقتناع، والتي تحمل صاحبها علي أن يلتزم بالإيمان الصادق، وبالعمل الصالح الذي يدل على أن ما يقوله بلسانه، يتوافق مع ما هو مستقر في قلبه.

ومما يؤكد رفض الشريعة لكل أنواع وأشكال الإكراه في الدين أنه من قواعدها وأصولها التي قامت عليها في مختلف أحكامها عدم الاعتداء بكل قول أو فعل يأتي عن طريق الإكراه أو الإجبار، ولا تعتد إلا بما يصدر عن الإنسان عن اختيار ورضا، بل إنها عند كثير من الفقهاء قد أباحت لأتباعها أن يتلفظوا بما يتنافى مع أحكام دينهم، إذا نزل بهم أذى شديد قد يؤدي إلى هلاكهم، ولا يقدح هذا التلفظ في إيمانهم مادامت قلوبهم عامرة بالإيمان، قال تعالى:(**من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من اكره وقلبه مطمئن بالإيمان، ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب**

---

[1] - ق، الآية:45

[2] - البقرة، الآية:8 .10

[3] - النساء، الآية:142 .143

من الله ولهم عذاب عظيم)[1]. وقد ذكر المفسرون[2] في سبب نزول هذه الآية روايات منها: أن المشركين أكرهوا عمار وأبويه ياسر وسمية على النطق بكلام يتعارض مع العقيدة الإسلامية، فأبى ياسر وسمية ذلك فقتلهما المشركون، وأما عمار فأعطاهم بلسانه ـ بعد التعذيب الشديد ـ ما أكرهوه عليه. فقال قائل للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ: إن عمارا قد كفر!! فقال صلى الله عليه وسلم:(**إن عمار ملئ إيمانا من رأسه إلى قدمه، وقد اختلط الإيمان بلحمه ودمه. وقال له عندما رآه:(يا عمار كيف تجد قلبك؟** فقال يا رسول الله: قلبي مطمئن بالإيمان. فقال له صلى الله عليه وسلم:(**إن عادوا فعد)**، ونزلت هذه الآية: **من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان...**"[3].

عناية الإسلام بالحرية الدينية[4]:

أما حرية المعتقد فقد صانها الإسلام، إلا ما كان منها منافياً لكرامة الإنسان وكرامة العقل. من أجل ذلك حارب الوثنية حرباً لا هوادة فيها ولا لين، وطهر شبه الجزيرة العربية منها، لأنها إهانة للإنسان وإلغاء لعقله. فأية قيمة لعقل يسجد أمام صنم لا يملك نفعاً ولا ضرراً؟ وأية كرامة لإنسان يهين نفسه تحت حجر أو خشب تبول عليه الكلاب والحيوانات ؟ وفي المقابل أتاح للنصرانية واليهودية أن تعيشا في ظل الإسلام، لأنها في أصلها ديانات سماوية، فقال: (**لا إكراه في الدين)**، هذا الشعار الذهبي الذي حمله النبي محمد صلى الله عليه وسلم ودعا على أساسه اليهود والنصارى إلى دينه فإن قبلوه دخلوا في الإسلام، وإن رفضوه لم يكرههم على شيء، وإنما سألهم أن يعطوا الجزية وهي ثمن حماية المسلمين لهم ودفاعهم عنهم في الحروب. ولعل الرسول صلى الله عليه وسلم خشي أن يقدم بعض

---

[1] – النحل، الآية:106

[2] – ابن كثير، أبو الفدا اسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ج:4، ص:228.

[3] – النحل، الآية:106.

[4] – مصطفى الرافعي، الإسلام والحرية، من موقع http://www.balagh.com المصدر: الإسلام دين المدنية القادمة)

المسلمين على التضييق على معتنقي الأديان الأخرى، فأمر باحترام أهل الذمة، وحمايتهم، ونهى أتباعه عن إيذاء الذميين، وقتلهم، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يغضب غضبا شديدا عندما يعتدى ظلما على أهل الذمة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ بَيْنَمَا يَهُودِيٌّ يَعْرِضُ سِلْعَتَهُ أُعْطِيَ بِهَا شَيْئًا كَرِهَهُ فَقَالَ لَا وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ فَسَمِعَهُ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَامَ فَلَطَمَ وَجْهَهُ وَقَالَ تَقُولُ وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا فَذَهَبَ إِلَيْهِ فَقَالَ أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّ لِي ذِمَّةً وَعَهْدًا فَمَا بَالُ فُلَانٍ لَطَمَ وَجْهِي فَقَالَ لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ فَذَكَرَهُ فَغَضِبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى رُئِيَ فِي وَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ:" لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ فَإِنَّهُ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ فَإِذَا مُوسَى آخِذٌ بِالْعَرْشِ فَلَا أَدْرِي أَحُوسِبَ بِصَعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ أَمْ بُعِثَ قَبْلِي وَلَا أَقُولُ إِنَّ أَحَدًا أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى"[1]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:" **أَلَا مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهِدًا لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ فَقَدْ أَخْفَرَ بِذِمَّةِ اللَّهِ فَلَا يُرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ سَبْعِينَ خَرِيفًا**"[2]، وعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:" وَأُوصِيهِ بِذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُوفَى لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ وَأَنْ يُقَاتَلَ مِنْ وَرَائِهِمْ وَلَا يُكَلَّفُوا إِلَّا طَاقَتَهُمْ"[3].

وتتفرع عن حرية المعتقد حرية الممارسة للشعائر الدينية. فقد كفل الإسلام هذه أيضاً، إذ أباح للنصارى أن يقيموا الكنائس ويظهروا الصلبان ويسيروا بها في المواكب، وذلك يقول المستشرق آدم ميتز: (لقد قلد ديوان جيش المسلمين لرجل

---

[1] – أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب أحاديث الأنبياء، باب وإن يونس لمن المرسلين، رقم الحديث:3162.

[2] – أخرجه الترمذي في سننه، باب الديات عن رسول الله، ما جاء فيمن يقتل نفسا معاهدة، رقم الحديث:1323.

[3] – أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الجهاد والسير، باب يقاتل عن أهل الذمة ولا يسترقون، رقم الحديث:2824

نصراني مرتين في أثناء القرن الثالث)، ومن المعلوم: أن القرن الثالث هو العصر الذهبي بالنسبة لانتصار الإسلام، ومع ذلك فقد فسح المسلمون المجال لغيرهم ليتولوا بعض شؤون الحكم والإدارة، وهذا دليل على أن الإسلام لأنصف الناس لا على أساس معتقداتهم وإنما على أساس كفاءاتهم.

ولعل من أبرز الأمثلة على التسامح الديني سلوك الخلفاء الراشدون مع أهل الكتاب، وخاصة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي دخل بيت المقدس وزار كنيسة القيامة ولما حان وقت الصلاة لم يجد مكاناً يؤدي الفريضة فيه إلا الفسحة الواقعة أمام مدخل الكنيسة فصلى فيها، ولما سأله البعض: لماذا لم يصل داخل الكنيسة؟ أجاب: إنه كان باستطاعته أن يصلي داخل الكنيسة، ولكنه خشي إن فعل أن يأتي يوم يطالب فيه المسلمون بالمكان الذي صلى فيه عمر ويجعلونه مسجداً.

قد يقول قائل: إن بعض العصور الإسلامية فرضت على غير المسلمين في بعض البلاد قيوداً تحد من حرية المعتقد، والحق أن الإسلام في تعاليمه بعيد كل البعد عن جميع ما يمس الحرية العقائدية. وإذا كانت بعض الظروف العابرة في بعض مراحل التاريخ الإسلامي قد وقعت فيها بعض التجاوزات، فإنه يجب أن يُعلم أن الإسلام لا يعني قط المسلمين، وأن بعض التصرفات الشخصية كانت وليدة أهواء، والإسلام منها براء[1].

---

[1] - وفي المقابل سجل التاريخ ذكريات مؤسفة عن الكثير من الملوك غير المسلمين، من ذلك ما فعله ملوك فرنسا في القرن السابع عشر تجاه خصومهم الدينيين: فمذابح (سانت بارتيلي) بين الكاثوليك والبروتستانت لم يعرف في تاريخ البشرية الطويل ما يشبهها هولاً. ولقد ذكر الأستاذ (رينو) أن فرنسا عام 1685م أصدرت أمراً بتحريم الديانة البروتستانتية وهدم كنائسها ونفي رؤسائها. وفي عام 1715م اعتبرت فرنسا كل زواج لا يعقد على الطريق الكاثوليكية زواجاً غير شرعي. فهل يعني كل هذا أن تصرف الملوك والحكام يمكن أن يكون حجة على عدم تسامح المسيحية؟ وهل يمكن أن نتهم الدين المسيحي على ضوء هذه الوقائع التاريخية؟ وما حدث في إسبانيا تجاه المسلمين فيما يعرف بمحاكم التفتيش، حيث فتنوا المسلون عن دينهم وتلقوا أبشع أنواع التعذيب والإهانة.

إن الإسلام يشدد على احترام حرية الإنسان في اعتقاده الديني ما دام يؤمن بالله ولا يشرك به شيئاً. وهذا واضح من قول القرآن الكريم: (**وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين، فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**)[1]. ولقد أقر بهذه الحقيقة كثيرون من كتاب أوروبا وباحثيها، مثل السيد (هنري دوكاستري)، أحد حكام الجزائر وقت أن كانت مستعمرة فرنسية، الذي يقول في كتابه: (الإسلام تأثرات ومباحث): (وبعد أن دان العرب للإسلام، واستأثرت قلوبهم بهذا الدين، برزوا في حال جديدة أمام أهل الأرض كافة... هو حال المسالمة، وحرية الأفكار في المعاملات، إذعاناً منهم لما ورد في القرآن الكريم من التوصية بمحاسنها الناس كافة، تلك الآيات التي كانت تنذر القبائل المارقة، كقول الكتاب: (**لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي**)[2]، وقوله: (**واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً**)[3]، وقوله: (**وعباد الرحمن الذي يمشون على الأرض هوناً، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً**)[4]".

إن هذا المبدأ الإسلامي نابع من رؤية الإسلام لحكمة وجود الإنسان في هذه الحياة، وأنه وجود ابتلاء وامتحان، ليختار الإنسان طريقه بمحض إرادته وحريته، ثم يتحمل مسؤولية هذا الاختيار أمام الله تعالى في الآخرة (**إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا**)[5]؛ لذلك يبني الإسلام مجتمعه ونظامه السياسي على أساس الحرية الدينية، فهو يعرض مبادئه، ويبين أحكامه، والناس بعد ذلك أحرار في قبوله أو رفضه (**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**)[6]. ففي ظل الإسلام لا تلغى الديانات الأخرى، ولا يحظر وجود سائر المبادئ والملل، بل يخاطبهم القرآن

---

[1] - الأنعام، الآية:48.

[2] - البقرة، الآية:256.

[3] - المزمل، الآية:10.

[4] - الفرقان، الآية:63.

[5] - الإنسان، الآية:03.

[6] - الكهف، الآية:29.

الحكيم معترفا بوجودهم، وشاركاً لهم حرية اختيارهم (**لكم دينكم ولي دين**)[1]. بل نظم الإسلام تشريعات ووضع قوانين لحماية أتباع الأديان الأخرى وللتعامل معهم في إطار الدولة الإسلامية، فإذا ما خضعوا للنظام السياسي، وساهموا ماليا في توفير احتياجاته عبر دفع الجزية وهي مبلغ سنوي من المال يحدده الحاكم الشرعي على كل فرد ذكر قادر من غير المسلمين، كما يدفع أفراد المسلمين الزكاة والخمس، فإنهم بعد ذلك أحرار في البقاء على أديانهم وممارسة معتقداتهم، دون أن يجبرهم أحد على تركها أو العدول عنها.

حرية المعتقد مقصد شرعي

لقد تميز الدين الإسلامي باحترامه إرادة الإنسان في سلوك واختيار ما يبدوا له أنه معتقد، فيكون ذلك أساسا يستمد منه منهجه الفكري في الحياة، وهو بذلك يرسي مبدأ أصيلا ومقصدا مهما وعظيما في تشريعاته، وهو مقصد الحرية الدينية. وخطاب الوحي واضح وجلي في تقرير وبيان هذه الحقيقة، يقول عز وجل في كتابه: ((**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**))[2]. وقد اتفق أهل العلم في تفسير الدين في الآية بأنه المعتقد والملة[3]. وسبب نزول هذه الآيات يدلل على ما ذكر من حرية اختيار الإنسان لعقيدته. وقد نقل القرطبي في تفسير القرطبي هذه الرواية: " قال السدي: نزلت الآية في رجل من الأنصار يقال له أبو حصين كان له ابنان فقدم تجار من الشام إلى المدينة يحملون الزيت، فلما أرادوا الخروج أتاهم ابنا الحصين فدعوهما إلى النصرانية فتنصرا ومضيا معهم إلى الشام. فأتى أبوهما رسول الله صلى الله عليه وسلم مشتكيا أمرهما، ورغب في أن يبعث

---

[1] - الكافرون، الآية:06.

[2] - البقرة، الآية: 256

[3] - الطبري(محمد بن جرير): جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط 3، (بدون ت)، ج: 3، ص: 15 . القرطبي (محمد بن أحمد): الجامع لأحكام القرآن، ج 3، ص: 280- 281

رسول الله صلى الله عليه وسلم من يردهما فنزلت (**لا إكراه في الدين**) ولم يؤمر يومئذ بقتال أهل الكتاب، وقال: "**أبعدهما الله هما أول من كفر**" فوجد أبو الحصين على النبي صلى الله عليه وسلم حين لم يبعث في طلبهما، فأنزل الله ((**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً**[1]))[2].

إن احترام إرادة الإنسان في اختيار ما يراه من معتقد، وكفالة الإسلام لحرية الأفراد الدينية، هو مبدأ تتجلى فيه مظاهر تكريم الإنسان في أوضح وأسمى صورة. يقول سيد قطب في تفسيره لقوله تعالى: ((**لا إكراه في الدين**)):" ومن هذا المبدأ يتجلى تكريم الله للإنسان واحترام إرادته وفكره ومشاعره، وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه.. وهذه هي أخص خصائص التحرر الإنساني"[3]، بل إن سيد قطب رحمه الله يذهب إلى أن حرية الاعتقاد هي أول حقوق الإنسان، وبها تثبت إنسانيته، وسلبها إنما هو سلب لهذه الإنسانية"[4].

وقد وسع العلماء من مفهوم الإكراه فأدخلوا كل أنواع ممارسة الضغوط المختلفة على الإنسان،كالحبس، أو الضرب، أو التجويع، أو الإغراء، كما يمنع الإسلام كذلك أي شكل من أشكال التسلط على العقيدة والتحدث باسم الدين لفرض عقيدة ما بالقهر والتحكم، أو نصب النفس واسطة بين الرب وعباده لأن ذلك اعتداء على حرية الناس ومنعهم من حرية التواصل مع خالقهم، وقد جاءت النصوص موضحة ذلك. قال تعالى: ((**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**))[5].

---

[1] - النساء، الآية: 65

[2] - القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج 3، ص 280.

[3] - سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط 27، 1998م، ج 1، ص291

[4] - سيد قطب: المرجع نفسه، ج 1، ص 291.

[5] - البقرة، الآية: 186

كما أن وجود فريقين من الناس، فريق مؤمن وآخر كافر هو مما اقتضته حكمته الله من خلق عباده، حتى يكون التدافع بينهم، ليهلك من هلك على بينة ويهتدي من يهتدي كذلك على بينة، وعلى وفق ذلك يكون الجزاء يوم القيامة، فالثواب لأهل الهداية، والعقاب لأهل الضلالة، قال تعالى:" **من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد**"[1].

وقد جعل الله عز وجل الاختلاف العقدي والفكري سنة كونية تجري على العباد منذ بدء الخليقة وإلى قيام الساعة، فالناس متفاوتون في كسب الإيمان والتزام الأحكام، مختارون لمعتقداتهم وأعمالهم، فحكمته تعالى اقتضت أن يخلق عباده مختلفة عقولهم، وإدراكاتهم، وأحوال تفكيرهم، ولو شاء الله تعالى لجعل الناس أمة واحدة بناء مفطورين على الطاعة والعبادة، مسلوبي الإرادة، يقول المولى عز وجل ((**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ**))[2]. وهذه الآية تؤكد حقيقة الحرية العقدية، وأنها من مقاصد الدين الإسلامي التي ينبغي أن تحترم وتصان وتكفل لجميع الناس.

أثر الحرية في وجود الدين واستمراره:

لما كان الدين أمرا أساسيا في حياة الناس، فقد دعا إليه الوحي في أول نزوله بمكة، لأن صلاح الفرد والجماعة يتوقف عليه في الدنيا، وبه تكون نجاتهم في الآخرة، قال الشاطبي : " أما الدين فهو أصل ما دعا إليه القرآن والسنة وما نشأ عنهما و هو أول ما نزل بمكة".[3]

ولضمان تحقيق حفظ الدين جاءت الشريعة الإسلامية بمجموعة من الأحكام، و التصرفات الشرعية، التي تجسد معنى الدين في حياة الناس، قال الشاطبي أيضا:" و أما الدين راجع إلى التصديق بالقلب والانقياد بالجوارح، والتصديق بالقلب آت بالمقصود في الإيمان بالله ورسوله و اليوم الآخر ليفرع عن ذلك كل ما جاء مفصلا

---

[1] - فصلت، الآية:46.

[2] - هود، الآية: 118

[3] - الشاطبي، الموافقات، ج:3، ص:47.

في المدني، فالأصل وارد في المكي، والانقياد بالجوارح حاصل بوجه واحد، و يكون ما زاد على ذلك تكميلا"[1]. وقد نبه الإمام الشاطبي في موضع آخر أن حفظ الدين يتجسد في حفظ معانيه الثلاثة: الإسلام، الإيمان، والإحسان، فقال رحمه الله:" فالضروريات الخمس كما تأصلت في الكتاب تفصلت في السنة، فإن حفظ الدين حاصله في ثلاثة معان، وهي: الإسلام، والإيمان، والإحسان، فأصلها في الكتاب وبيانها في السنة، ومكمله ثلاثة أشياء: وهي الدعاء إليه بالترغيب والترهيب، وجهاد من عانده، أو رام إفساده، وتلافي النقصان الطارئ في أصله، وأصل هذه في الكتاب وبيانها في السنة على الكمال".[2]

لكن هذه المعاني الإيمانية والشعائر الدينية لن تجد لها مكانا من الممارسة إلا في ظل الحرية، فالحرية تحفظ الدين من جانب الوجود كما قرر الإمام الشاطبي هذا المسلك، وهو الجانب المهم من الحفظ، فهي تمكن من إقامة أصول العبادات، والنطق بالشهادتين وتحقيق معناهما اختيارا واعتقادا دون إكراه أو ضغط أو خوف، كما أن الحرية تعين على ممارسة الشعائر الدينية، وإظهارها، فسماع الأذان، وإقامة الجمعة والجماعات والأعياد مظاهر إسلامية يتميز بها المجتمع المسلم عن غيره من المجتمعات، ويجب أن تمارس هذه الشعائر فرادى وجماعات في أجواء يسودها الأمن والاستقرار، فأحكام الدين تمارس علانية، وليس خفية أو في الشعاب، أو في خوف يلاحق الإنسان، فلكل فرد دينه الذي يجب على الغير أن يحترموه، قال تعالى:" **لكم دينكم ولي ديني**"[3].

وإذا تأملنا في النصوص الشرعية من الكتاب والسنة التي تأمر بامتثال الدين، وتؤكد على إتيان أحكامه وإظهار شعائره، مثل قوله تعالى:" **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويوتوا الزكاة وذلك دين القيمة** "[4]،

---

[1] - المصدر نفسه، ص:49.

[2] - الشاطبي، الموافقات، ج:4، ص:27.

[3] - الكافرون، الآية:06.

[4] - البينة، الآية:05.

وحديث بني الإسلام على خمس[1]، وقوله أيضا:" **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون**"[2]، وقوله تعالى:" **ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا** "[3]، يلاحظ أن الخطاب الشرعي الوارد فيها جاء بصيغة الجمع، مما يدل على أنها تمارس علانية في المجتمع، وعلى المجتمع أن يكفل ذلك، ثم إن هذه النصوص وغيرها مما يقرر حقائق الدين وأركانه وأحكامه لا تجد لها معنى من حيث الممارسة والتجسيد والامتثال إذا غابت الحرية، وزال الأمن.

كما أن ممارسة الدعوة لتعليم أحكام الدين وتبليغه للناس تكون علانية، وبطرق شرعية سليمة وضحتها النصوص الشرعية، أما النشاط السري الذي يمارس من قبل البعض مخالف للأصل الذي بنيت عليه الدعوة إلى الله لتبليغ الدين والتعريف به، وتفهيمه للناس.

الحرية الدينية تجسيد لقيم التسامح والتعاون:

إن قيم التسامح الديني تترك أثرا جوهريا في الواقع الاجتماعي المعيش، كونه ضرورة وجودية توفر أجواء ومناخات مناسبة للحريات الدينية، وما تنتجه من استقرار حقيقي لمجتمع يسوده الأمن والتفاعل والتعاون بعيد عن كل أنواع الصراعات الطائفية والدينية والمذهبية.

فالواقع التاريخي يؤكد أن الإنسان مدني بطبعه، فلا تتحقق حياته ولا يبني كيانه ولا تكتمل ذاته ولا يكتسب ما تصبو إليه قدراته إلا داخل وسط اجتماعي مترابط ومتشابك ومتعاون فيه، فالإنسان ابن بيئته فهي التي تنشئه وتكونه وتلونه وتصنع ثقافته، وهي التي تغرس فيه العقيدة، وتطبعه بالسلوك وتكسبه العادات. ثم إن لكل

---

[1] - أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عمر في كتاب الإيمان، باب بني الإسلام على خمس، رقم:07، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام، رقم:19. وهو في الأربعين النووية.

[2] - البقرة، الآية: 183.

[3] - آل عمران، الآية:97.

مجتمع خصائصه التي يتميز بها، ويختلف فيها عن غيره، سواء أكانت خصائص دينية أو سلوكية أو ثقافية، والدين الإسلامي يحترم هذا التنوع، ويصون هذا الاختلاف، ويراعي المشاعر والشعائر الدينية، لأن ذلك من مقتضيات سنة الوجود البشري على وجه الأرض، الذي شاءت حكمته تعالى أن يعيش بنو آدم في شكل تجمعات بشرية وهي إن اتفقت فيما بينها من وحدة الأصل والحاجة إلى التجمع والتعاون، فإنها تتباين في خصائص عرقية ودينية وبيئية وثقافية وقد أقر القرآن الكريم هذه الحقيقة بقوله تعالى:"**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا** "[1].

فالتنوع بين الناس أفرادا وجماعات ليس انحرافا ولا شذوذا، بل هو من طبيعتهم البشرية ومن أصل خلقتهم الآدمية، فهو ظاهرة ضرورية اقتضتها الفطرة الإنسانية واستلزمتها النشأة الاجتماعية.

وهكذا نلحظ أن الغاية من اختلاف الناس إلى شعوب وقبائل وتنوعهم إلى ثقافات ومدنيات إنما هو التعارف لا التناكر والتعايش لا الاقتتال والتعاون لا التطاحن، فالحرية الدينية تقر لكل جماعة دينها ومعتقداتها، قال تعالى:" **لكم دينكم ولي ديني**"[2].

إن إقرار الحرية الدينية يرسي قيم التسامح الديني التي هي ضرورية للوجود الإنساني، يقر الاختلاف ويقبل التنوع ويعترف بالتغاير ويحترم معتقدات الآخرين، ويمنع الصراعات والتقاتل بين الجماعات البشرية.

إن التسامح الديني يقتضي التسليم -اعتقادا وسلوكا وممارسة- بأنه لكل طائفة وجودها ودينها، وإذا كان لهؤلاء دين له حرمته فلأولئك دين له حرمته أيضا، وإذا كان لهؤلاء خصوصية ثقافية لا تقبل المس ولا الانتهاك، فلأولئك كذلك خصوصية ثقافية تستحق المعاملة نفسها.

---

[1] - الحجرات، الآية:13.

[2] - الكافرون، الآية:06.

فالتسامح الديني الذي هو ثمرة الحرية الدينية يعد الأرضية الأساسية لبناء مجتمع إنساني، تسود فيه قيم التعددية والديمقراطية وحرية المعتقد وقبول الاختلاف في الرأي والفكر والثقافة، واحترام حقوق الإنسان.

فالتسامح إذن عامل فعال في بناء المجتمع التي تسود فيه القيم الإنسانية الراقية، والفضائل الاجتماعية السامية، تكون من أعظم ثمراتها الاحترام المتبادل والتقدير المشترك، وتدعو إلى التعارف والتقارب، ويكون التفاضل والتمايز على أساس الصلاح والكفاءة، أو التقوى بلغة القرآن الكريم.

ضمانات توفير الحرية لحفظ الدين:

وأهم ما تسعى إليه الشريعة في هذا الصدد إرساء ضمانات تجسد بها الحرية، وتحفظ بها الدين، من أهمها:

أ ـ إشاعة الأمن والسلام:

يحظى السلام في الإسلام بمكانة كبيرة، تشهد لذلك نصوص كثيرة من الكتاب والسنة. قال تعالى: (**والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**"[1]. وجعل الله سبحانه السلام تحية أهل الجنة، قال تعالى: (**دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين**"[2]. بل سمَّى الآخرة بدار السلام ليحض المسلم على السعي نحو السلام والتنعم بظلاله ونعيمه، قال سبحانه: (**لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون**"[3]. ودعا الرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السلام عن طريق حفظ الحقوق، وترسيخ الأخوة بين الناس، والنهى عن الظلم، فقال صلى الله عليه وسلم":**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ وَمَنْ**

---

[1] - يونس، الآية:25.

[2] - يونس، الآية:10.

[3] - الأنعام، الآية:127.

فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ "[1].

إن الإسلام رفع راية السلام منذ اللحظة الأولى لميلاده، ولم يعلن حرباً إلا إذا كان قد دُفع إليها دفعاً، ولقد ظل ثلاث عشرة سنة في مكة ينشر دعوته بالطرق السلمية، فقابلته قريش بالاضطهاد والإيذاء لأتباعه، ولكنه بالرغم من ذلك كان يأمر أتباعه بالجنوح إلى السلم والأخذ بالعفو والإعراض عن الجاهلين. فليس هناك دين دعا إلى السلام كما دعا إليه الإسلام، ولا مذهب من المذاهب القديمة أو الحديثة أسهم في تدعيم أسس السلام كما أسهم الإسلام. فالسلام في الأرض هو هدف الإسلام ودعوته، ولم تكن حروبه في الواقع إلا وسيلة لإقرار هذا السلام في الأرض، ولن يتمكن المسلم من ممارسة دينه، ولا غيره من أصحاب الديانات الأخرى إلا في أجواء الأمن والأمان والسلام.

ب ـ تشريع الجهاد في سبيل الله منعا للظلم والاعتداء والفتن:

شرع الجهاد لتحقيق عدة مقاصد كلها تخدم الدين، حماية لشعائره، وتأمينا لحرية ممارستها، قال الإمام ابن عاشور مبينا مسالك الشريعة في حفظ الدين:" فحفظ الدين معناه حفظ دين كل أحد من المسلمين أن يدخل عليه ما يفسد عليه اعتقاده وعمله اللاحق بالدين، وحفظ الدين بالنسبة لعموم الأمة، أي دفع كل ما شأنه أن ينقض أصول الدين القطيعة، و يدخل في ذلك حماية البيضة، والذب عن الحوزة الإسلامية بإبقاء وسائل تلقي الدين من الأمة حاضرها وآتيها"[2]. ومن مقاصد تشريع الجهاد:

---

[1] - أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عمر في كتاب المظالم والغصب، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، رقم:2262. وأخرجه مسلم في صحيحه عن ابن عمر في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم:4677.

[2] - ابن عاشور، مقاصد الشريعة، ص:60.

ـ منع الظلم والاعتداء:

شرع الجهاد لحماية البلاد الإسلامية التي يطبق فيها الدين، والذب عن الحوزة، وتمكين الدين في الأرض، وتبليغه للناس، وتأمين حرية ممارسته، قال تعالى: (**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير**)[1]،

ـ منع الفتن :

إن انتشار الفتن من أخطر ما يهدد الدين، ويمنع الاستقرار، ويشوش على الناس امتثالهم للدين، والالتزام بأحكامه، لذلك وجب سد ذرائعها قبل وقوعها، ومحاربتها بعد وقوعها، لأنها أخطر من القتل، وأفتك بالدين والأرواح، قال تعالى: (**والفتنة أشد من القتل**)[2]، وقال: (**والفتنة أكبر من القتل**)[3]، وقال تعالى: (**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله**)[4].

ج ـ وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الواجبات الكفائية، وهو قاعدة قوية، وضمان كبير لصون المجتمع من الفساد، وحماية الدين من أن يتطرق إليه خلل أو شبهات أو انحرافات في الفهم والممارسة، وقد نبه الإمام الشاطبي أن هذه القاعدة آلية قوية لحفظ كلية الدين، بل هي مسلك تحفظ به جميع الكليات الضرورية الأخرى من جانب العدم، فقال:" ويجمعها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ترجع إلى حفظ الجميع من جانب العدم"[5].

---

[1] – الحج، الآية:39.

[2] – البقرة، الآية:191.

[3] – البقرة، الآية:217.

[4] – البقرة، الآية:193.

[5] – الشاطبي، الموافقات، ج:2، ص:8و9.

ولتحقيق ذلك قامت الشريعة بإنشاء جهاز الحسبة الذي يقوم بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بطريقة منظمة ومستمرة. والمحتسب مهمته محاربة المنكر إذا ظهر فعله، والحث على الخير والمعروف إذا ظهر تركه[1].

د ـ نشر ثقافة الحوار:

إذا كان الإسلام يقرّ حرية العقيدة والفكر، فإنه في ذات الوقت يدعو أبناء البشر لاختيار الحق وإتباع الهدى، وأن لا تكون حالات التعصب والانفعال والأهواء الذاتية سببا لابتعاد الإنسان عن الحق وانسياقه وراء الباطل. لذلك حمل الإسلام دعاته وأبناءه مسؤولية هداية الآخرين والسعي لإقناعهم بالدين الحق عبر الحوار والمناقشة الموضوعية الهادفة في جوّ من الحرية والاحترام المتبادل. والهدف من الحوار هو من أجل الوصول إلى الحقيقة ونبذ الجهل والخطأ والوهم، وخاصة في مجال الديانة والمعتقد وهي القضية الأهم والأخطر، فلا بد أن يتصف الإنسان في مجال الحوار بالحذر والدقة، ويتسلح بالموضوعية والمنطق حتى لا ينساق وراء متاهات الضلال والانحراف، فيكون الحوار نقمة عليه.

والحوار الموضوعي لا يتنافى مع الحرية بل هو مظهر صادق لوجودها وطريق سليم للوصول إلى الحق.

وينطلق الحوار في نظر الإسلام من منطلق ضرورة البحث عن الحق ولزوم إتباعه، يقول تعالى: (**أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدّي إلا أن يهدى**)[2]، **وقال أيضا: (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه)**[3].

---

[1] - الماوردي، أبو الحسن، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط3، سنة 1386هـ/ 1973م، ص:240 - عبد الحسيب رضوان، دراسات في الحسبة من الناحيتين التاريخية والفقهية، ط1، سنة 1410هـ/1990م، ص:49.

[2] - يونس، الآية:35.

[3] - الزمر، الآية:18.

وأسلوب الحوار يجب أن يكون موضوعيا هادئا بعيدا عن التشنج والانفعال وتجريح المشاعر يقول تعالى:(**ادع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**)[1]، (**ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم**)[2].

أما وسيلة اكتشاف الحق والتعرف عليه فهو الدليل والبرهان المستند إلى العقل، يقول تعالى: (**أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها**)[3]، وقال:(**أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين**)[4]، (**قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**)[5].

ضمن هذا الإطار يحث الإسلام على إجراء الحوار مع أصحاب الديانات والعقائد الأخرى، وينقل لنا التاريخ صورا رائعة عن مجالس المناظرة والحوار التي كانت تحصل بين أئمة المسلمين وعلمائهم وبين قادة وأتباع سائر الأديان، وهي صور ومشاهد يجب أن يعتز بها تاريخ البشرية كنموذج أسمى للتعامل بين المبادئ والأديان، والانفتاح الفكري والأخلاقي الحضاري.

إن القرآن الكريم يخصص مساحة وافية من آياته الكريمة للتحاور مع الرأي الآخر، وهو بذلك يكون مدرسة للمسلمين والبشرية جمعاء، يتتلمذون من خلاله على أسلوب الحوار والتعامل الفكري والعقائدي بعيدا عن تبادل الشتم والسب والعنف والتهم.

لقد حاور القرآن الكريم كل المخالفين لرسالات الله والمنكرين لوجوده تعالى فينقل آراءهم بأمانة وإن كانت تشتمل على أفكار باطلة أو عبارات بذيئة ثم يناقشها بموضوعية ووضوح ويردها بالأدلة والبراهين...والمقام لا يسمح في استعراض

---

[1] - النحل، الآية:125.

[2] - العنكبوت، الآية:46.

[3] - الحج، الآية:46.

[4] - الأعراف، الآية:184.

[5] - النمل، الآية:64.

نماذج من أسلوب القرآن في الحوار، واستعراض الرأي الآخر، ثم مناقشته وإبطاله[1].

دور الدين الإسلامي في إقرار الحرية وحمايتها:

إن حفظ الدين وتمكينه في واقع الحياة يؤدي بدوره إلى إشاعة الحرية، ونشر السلم والأمان في حياة الناس، فهو دين يرشد إلى الخير والصلاح، ويمنع الشر والفساد.

ويتميز الإسلام في أنه يكسب المسلم جملة من الخصائص التي تجعل منه عضوا صالحا نافعا مستقيما، يتفاعل مع الغير من أجل الصالح العام، استجابة لقوله تعالى:" **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان**"[2]. كما أن الإسلام يغرس في نفوس أتباعه الوازع الديني المتمثل في الخوف من الله تعالى، هذه الرقابة الذاتية التي تبعده عن كل أنواع الشر التي نهى عنها الدين. ثم إن امتلاء القلب بالخوف من الله والثقة به، والرضا برزقه تجعله إنسانا سويا يعيش أمنا في نفسه وطمأنينة يكف شره عن الناس، وكف الشر عن الآخرين جعلها الإسلام صدقة يتقرب بها المسلم إلى ربه تعالى[3].

إن الجماعات المتطرفة التي تمارس العنف والإجرام والتقتيل باسم الإسلام، وتوظف الدين توظيفا يتناسب مع مبادئها، وتستخدم تأويلات فقهية وتفسيرات

---

[1] - من ذلك ما جاء في سورة الطور التي نقلت مقولات المشركين وتشكيكهم في نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم، واتهامهم له بالكهانة والجنون، وإنكارهم لوحدانية الله، وادعاءهم الباطل بأن الملائكة بنات الله، ورغم فظاعة هذه الافتراءات فإن القرآن يستعرضها ويناقشها عن طريق إثارة الوجدان الفطري، والاحتكام إلى العقل.

[2] - المائدة، الآية:02.

[3] - أخرج البخاري عن أبي موسى الأشعري قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ قَالُوا فَإِنْ لَمْ يَجِدْ قَالَ فَيَعْمَلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ قَالُوا فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَوْ لَمْ يَفْعَلْ قَالَ فَيُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ قَالُوا فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ قَالَ فَيَأْمُرُ بِالْخَيْرِ أَوْ قَالَ بِالْمَعْرُوفِ قَالَ فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ قَالَ فَيُمْسِكُ عَنْ الشَّرِّ فَإِنَّهُ لَهُ صَدَقَةٌ". انظر صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب كل معروف صدقة، رقم:5563.

تستدل بها على مشروعية مبادئها وأفعالها المتطرفة، يجب أن يقابل ذلك بتوظيف الدين توظيفا سليما لمنع الأفكار الضالة، والفتاوى الخاطئة، عن طريق العلم وحسن التبليغ ونشر المبادئ السمحة، والشرح السليم للنصوص، وتوضيح المقاصد السامية، لتفويت الفرصة على هؤلاء وعزلهم اجتماعيا وفكريا، فليس فقط القوة وسيلة لعلاج الانحرافات، بل لابد من تسخير الخطاب الإسلامي المعتدل لعرض مبادئ الإسلام وأحكامه ونصوصه عرضا سليما؛ فالدين من أقوى الروابط الاجتماعية التي تضمن استمرار واستقرار المجتمع[1]، وتمنع التطرف والانحراف.

فالدين يقوم بعدة وظائف اجتماعية تؤدي إلى قيام المجتمع وضمان استمراره، من أهمها:

أ - غرس الرقابة الذاتية في نفس الإنسان، عن طريق الإيمان والخوف من الله تعالى، والطمع في رحمته تعالى، وهي رقابة ذاتية داخلية تمنع الشخص من الانحراف.

ب - إقامة شبكة علاقات اجتماعية متينة بين الأفراد توحد وتؤلف بينهم، عن طريق غرس قيم التعاطف والتكافل والمحبة والإخاء والانتماء والتعاون، وهي سلوكيات اجتماعية تجعل من الفرد عنصرا اجتماعيا إيجابا، يتفاعل مع محيطه، ويكون في خدمة مجتمعه، ويعمل على حمايته واستقراره، ومن نماذج النصوص التي دعت إلى ذلك: قوله تعالى: ((**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**))[2]، وقوله عليه الصلاة والسلام:(**مَنْ رَأَى مِنكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**)[3]، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم:" **إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ**

---

[1] - محمد بن حميد الثقفي، دور مؤسسات المجتمع في مقاومة جرائم الإرهاب، ورقة عمل مقدمة لندوة المجتمع والأمن المنعقدة بكلية الملك فهد الأمنية بالرياض من 2/21 حتى 2/24 من عام 1425هـ،

[2] - آل عمران، الآية: 104

[3] - أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان، رقم:70.

بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ"[1]، وقال:" **مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**"[2]، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم:" **كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ**"[3]، وقول الله تعالى:" **ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه** "[4].

ج - الاعتراف بالقدرات الفردية والمواهب العقلية والجسدية للفرد، لأن قوة الفرد وصلاحه قوة للمجتمع وصلاحه. وذلك بتحقيق مبدأ التوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع، فلا تطغى مصلحة الفرد على مصلحة المجتمع، ولا تطغى مصلحة المجتمع على مصالح الفرد.

د- إقامة سلطان قوي وعادل يحفظ النظام الاجتماعي، ويحدد العقوبات المناسبة التي تضع حدا للإجرام والانحراف الفردي والجماعي لأولئك الذين

---

[1] - أخرجه البخاري بهذا اللفظ عن أبي موسى الأشعري، في صحيحه في كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، رقم:459. وأخرجه مسلم في صحيحه عن أبي موسى الأشعري، في كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم:4684.

[2] - أخرجه مسلم في صحيحه واللفظ له عن النعمان بن بشير في كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم:4685. وأخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم:5552.

[3] - وتمام الحديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَنَاجَشُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ حَدَّثَنِي أَبُو الطَّاهِرِ أَحْمَدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ سَرْحٍ حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ عَنْ أُسَامَةَ وَهُوَ ابْنُ زَيْدٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا سَعِيدٍ مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرِ بْنِ كُرَيْزٍ يَقُولُ سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ نَحْوَ حَدِيثِ دَاوُدَ وَزَادَ وَنَقَصَ وَمِمَّا زَادَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ". أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، رقم:4650.

[4] - الحجرات، الآية:12.

ضعفت نفوسهم أمام الشهوات فلم يمنعهم الإيمان والخوف من الله من ارتكاب المحرمات.

أثر الحرية الدينية في الاعتراف بتنوع الأديان واختلافها:

1 ـ إقرار الدين الإسلامي للتعددية الدينية:

قبل الإسلام لم تكن للبشرية حضارة تحترم تعددية الأديان، بل كل ديانة كانت ترفض غيرها من الديانات الأخرى؛ ولكن الإسلام باعترافه بالأديان والأنبياء والكتب السماوية التي جاءت قبله، وبإقراره للحرية الدينية، ودعوته إلى الحوار والجدال الهادف، فقد أسس لهذا النوع من الثقافة الجديدة في العالم التي هي الحوار.

وأدى ذلك إلى ظهور علم جديد هو علم الكلام، يبحث في موضوعات العقيدة، حيث نبغ علماء مسلمون تخصصوا في مجال المناظرة والمحاكمة والمقارنة بين الأديان والمذاهب، وذلك انطلاقا من تعاليم الإسلام الداعية إلى الانفتاح على سائر الأديان والأفكار، والحوار مع أصحابها بالحجة والبرهان، والمجادلة معهم بالتي هي أحسن، عبر الاحتكام إلى العقل والرجوع إلى الفطرة والمنطق، ليتضح الحق للباحثين عنه، وتثبت الحجة على الجاهلين والضالين.. فقد تمخض عن تلك المناظرات والحوارات الموضوعية التي أدارها قادة المسلمين وعلماؤهم مع أئمة مختلف الأديان علمُ جديد لم يكن متداولا من قبل هو علم مقارنة ا لأديان[1].

---

[1] – عند اتجه بعض علماء المسلمين للكتابة التخصصية في المقارنة بين الأديان، بداية من منتصف القرن الثاني للهجرة حينما بدأت حركة التدوين والتأليف لدى المسلمين؛ منهم النوبختي (202 هـ) الذي يعتبر أول من ألف في هذا المجال وكتب كتابه (الآراء والديانات) وبعده كتب المسعودي (346 هـ) كتابين عن (الديانات) ثم جاء المسبحي (420 هـ) فكتب كتابه (درك البغية في وصف الأديان والعبادات) وهو كتاب مطوّل يقع في حوالي ثلاثة آلاف ورقة. وكثر بعد ذلك التأليف في هذا المجال، ومن أبرز الكتب المشهورة كتاب (الملل والنحل) لأبي منصور البغدادي (439 هـ) وكتاب (الفصل في الملل والأهواء والنحل) لابن حزم الأندلسي (456 هـ) وكتاب (الملل والنحل)

ويقرر ميتز أن علم مقارنة الأديان علم إسلامي بقوله: إن تسامح المسلمين في حياتهم مع اليهود والنصارى، ذلك التسامح الذي لم يسمع بمثله في العصور الوسطى، كان سببا في أن يلحق بمباحث علم الكلام شيء لم يكن قط من مظاهر العصور الوسطى وهو علم مقارنة الأديان ونشأة هذا العلم لم تكن من جانب المتكلمين. ومعنى ذلك أن هذا العلم لم يكن وسيلة عند المسلمين للحطّ من الأديان الأخرى، وإنما كان دراسة وصفية، لا تعصب فيها، تؤدي إلى نتائجها الطبيعية، وبواسطة هذا التسامح دخل الآلاف والملايين في الدين الإسلامي[1].

2 ـ احترام الإسلام للديانات وأتباعها:

إن رؤية الإسلام لحكمة وجود الإنسان في هذه الحياة، أنه وجوده وجود ابتلاء واختبار، وأنه المسؤول وحده على اختيار طريقه بمحض إرادته وحريته، ثم يتحمل مسؤولية هذا الاختيار أمام الله تعالى في الآخرة (**إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا**)[2]، كان مقصد الإسلام هو بناء المجتمع والنظام السياسي على أساس الحرية الدينية، فهو يعرض مبادئه، ويبين أحكامه، والناس بعد ذلك أحرار في قبوله أو رفضه (**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**)[3].

إن الإسلام لا يلغى الديانات الأخرى، ولا يحظر وجود سائر المبادئ والملل، بل يخاطبهم القرآن الحكيم معترفا بوجودهم، وتاركاً لهم حرية اختيارهم (**لكم دينكم ولي دين**)[4].

للشهرستاني (548 هـ) وهناك كتاب (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) لأبي الريحان البيروني.

[1] - وينبغي أن تهتم الجامعات والكليات الإسلامية في هذا العصر بعلم مقارنة الأديان، ليتخرج العالم المسلم العارف بتاريخ وآراء سائر الأديان والمبادئ، والقادر على الحوار مع أصحابها، لإثبات صحة عقيدة الإسلام وأفكاره السامية، ومبادئه السمحة.

[2] - الإنسان، الآية:03.

[3] - الكهف، الآية:29.

[4] - الكافرون، الآية:06.

بل وضع الإسلام تشريعات وقوانين لحماية أتباع الأديان الأخرى وضمان حقوقهم المدنية، مثلهم مثل غيرهم من المسلمين، إن هم خضعوا للنظام السياسي، ودفع الجزية، وهم بعد ذلك أحرار في البقاء على أديانهم وممارسة معتقداتهم، دون أن يجبرهم أحد على تركها أو العدول عنها.

وقد يتساءل البعض عن مدى قبول المسلم للتعايش مع أصحاب الديانات الأخرى التي يراها باطلة، وهو ينظر إلى شعائرهم التي يمارسونها المنافية للمنطق والفطرة والذوق السليم؟

إن الإسلام يبني فكر الإنسان المسلم ومشاعره على أساس عبادة الله وتوحيده والالتزام بدينه الحق، كما أنه يربيه على احترام الآخرين مهما كان دينهم أو مذهبهم ما لم يكن معتديا ظالما أو محاربا للحق، بل يشجع المسلمين على البر والإحسان للكفار غير المعادين المحاربين قال تعالى: (**لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين الله**)[1]. وبالتالي فالإسلام يرفض اضطهاد الناس على أساس دينهم أو اعتقاداتهم، ويوصي أتباعه بأن يكونوا المثل الأعلى في الأخلاق وحسن التعامل مع الآخرين، حتى لا تحسب تصرفاتهم غير اللائقة على الإسلام فتشوه سمعته وتنفر الآخرين منه.

وإذا كان مطلوباً من المسلم أن يدعو إلى دينه وأن يوضح بطلان وفساد الأديان الأخرى فإن ذلك يجب أن يكون بأسلوب لائق لا يجرح مشاعر الآخرين ولا ينفّرهم، يقول تعالى: (**ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم**)[2].

بل الإسلام يذهب إلى أبعد من ذلك إذ يوجب على المسلمين جملة من آداب التعامل مع الآخرين كالنهي عن سب أصنام الكفار وأوثانهم التي هي عندهم مقدسة، لأن ربما قد يؤدي بهم إلى إهانة مقدسات المسلمين، وسب الله تعالى،

---

[1] - الممتحنة، الآية:08.

[2] - العنكبوت، الآية:46.

والإسلام يرفض تبادل الإهانة والسب كلغة للحوار والتعامل بين أصحاب الأديان، وفي ذلك يقول تعالى: (**ولا تسبّوا الذين يدعون من درن الله فيسبّوا الله عدواً بغير علم كذلك زيّنّا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون**)[1].

وقد وردت أحاديث ونصوص كثيرة تؤكد على المسلمين حسن التعامل مع الآخرين وبخاصة أهل الذمة[2]، منها قوله صلى الله عليه وسلم ":**أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوْ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**"[3].

وقد ارتقى المسلمون إلى هذا الأدب النبوي، ففي زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه مرّ شيخ مكفوف كبير يسأل، أي يستجدي الصدقة من الناس، فانزعج الإمام من هذا المشهد وقال: ما هذا؟ ولم يقل: من هذا؟ ذلك لان هذه الحالة غير مقبولة ولا مرضية بغض النظر عن دين صاحبها أو مذهبه .وحينما أجابه أصحابه: يا أمير المؤمنين هذا نصراني! ردهم الإمام غاضبا بقوله :استعملتموه حتى إذا كبر وعجز منعتموه! أنفقوا عليه من بيت المال.

ولم يكتف الإسلام باحترام الأحياء من إتباع سائر الأديان بل ترى النبي صلى الله عليه وسلم يحترم بنفسه أمواتهم، ففي صحيح البخاري بسنده عَنْ عَامِرِ بْنِ

---

[1] - الأنعام، الآية:108.

[2] - يتحدث الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي في بحثه المفصل عن" غير المسلمين في المجتمع الإسلامي" فيقول: "جرى العرف الإسلامي على تسمية المواطنين من غير المسلمين في المجتمع الإسلامي باسم "أهل الذمّة" أو "الذميين كلمة معناها العهد والضمان والأمان، وإنما سموا كذلك لأن لهم عهد الله وعهد رسوله وعهد جماعة المسلمين. أن يعيشوا في حماية الإسلام وفي كنف المجتمع الإسلامي آمنين مطمئنين، فهم في أمان المسلمين وضمانهم بناء على عقد الذمة. فهذه تعطي أهلها من غير المسلمين ما يشبه في عصرنا الجنسية السياسية التي تعطيها الدولة لرعاياها. فيكتسبون بذلك حقوق المواطنين ويلتزمون بواجباتهم، فالذمي على هذا الأساس من "أهل دار الإسلام "كما يعبر الفقهاء أو من حاملي الجنسية الإسلامية كما يعتر المعاصرون اليوم.

[3] - أخرجه أبو داود في سننه في كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات، رقم الحديث:2654.

رَبِيعَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:" **إِذَا رَأَيْتُمْ الْجَنَازَةَ فَقُومُوا حَتَّى تُخَلِّفَكُمْ**"[1]. وفيه أيضا:سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ وَقَيْسُ بْنُ سَعْدٍ كان قَاعِدَيْنِ بِالْقَادِسِيَّةِ فَمَرُّوا عَلَيْهِمَا بِجَنَازَةٍ فَقَامَا فَقِيلَ لَهُمَا إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ أَيْ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ فَقَالَا إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّتْ بِهِ جِنَازَةٌ فَقَامَ فَقِيلَ لَهُ إِنَّهَا جِنَازَةُ يَهُودِيٍّ فَقَالَ **أَلَيْسَتْ نَفْسًا** "[2].

بهذه التربية نجح الدين الإسلامي في تحقيق التوازن في شخصية المسلم بين ثقته المطلقة بسمو دينه وعقيدته، وبين احترام سائر الأديان وأصحابها.

وقد كتب أبو الريحان البيروتي في أديان الهند في القرن الخامس من الهجرة، فلم يمس عاطفة أحد من أهلها، وكان إذا كتب عن نحلة يوهمك أنه هو أحد أبناء تلك النحلة لتلطفه في وصف شعائرها.

وكان كتاب المسلمين يذكرون جميع المخالفين بكل حرمة، وفي كتاب طبقات الأطباء لابن أبي صيبعة، وطبقات الحكماء لابن القفطي، وطبقات الأدباء لياقوت، والوافي بالوفيات للصفدي، وفي تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي أمثلة لهذا التسامح. فقد ترجم المؤلفون للنصارى واليهود والسامريين والمجوس كأنهم أبناء ملة واحدة.

وقد اعترف بهذه الحقيقة الكتاب الغربيون، فقد تحدث "غوستاف لوبون " عن هذه الميزة الفريدة للإسلام بقوله: "إن الإسلام هو الذي علم الإنسانية كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين وقد كان يظن أنهما لا يجتمعان ." كما أشار "هاملتون " إلى ذلك عند تعرضه لدراسات مقارنات الأديان فقال: العرب هم أول من ألفوا في الملل والنحل، لأنهم كانوا واسعي الصدر تجاه العقائد الأخرى، وحاولوا أن يفهموها ويدحضوها بالبرهان والحجة، ثم إنهم اعترفوا بما أتى قبل الإسلام من ديانات توحيدية.

---

[1] - أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الجنائز، باب القيام للجنازة، رقم الحديث:1224.

[2] - أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي، رقم الحديث:1229.

إن من يقرأ تاريخ المسلمين وخاصة في عصوره الأولى ليندهش من مستوى الإحسان والتسامح الذي يتعامل به المسلمون مع غيرهم من أبناء الديانات الأخرى، فقد كانوا يتعايشون معا كأبناء مجتمع واحد دون أن يؤثر اختلاف الدين على أسلوب علاقاتهم وتعاملهم الإنساني.

فقد روي إن غلاما لابن عباس ذبح شاة فقال له ابن عباس :إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودي، ثم كررها حتى قال له الغلام: لم تقول هذا؟ فقال: إن رسول الله! لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه.

فاليهودي مجاور لابن عباس، وأخلاقيات الجوار تنطبق على كل إنسان مهما كان دينه.

وهذا علي بن أبي طالب وهو أمير المؤمنين وخليفة المسلمين يرافق ذميا في طريق سفره فيسأله الذميّ: أين تريد؟ فيجيبه الإمام: أريد الكوفة. وعند مفترق الطريق إلى الكوفة، لم يسلك الإمام طريق الكوفة وإنما سار مع الذمي في طريقه، فالتفت إليه الذمي: أليس تريد الكوفة؟ قال: بلى، فسأله الذمي: فلماذا تجاوزت طريق الكوفة إذا؟ قال الإمام علي: هذا من تمام حسن الصحبة أن يشيّع الرجل صاحبه هنيهة إذا فارقه وكذلك أمرنا نبينا.

ويقول السيد محمد الشيرازي: "وهذا هو الذي عمله الرسول (ص) فإنه لما ظفر بأصحاب بدر وكانوا مشركين لم يقتلهم بل أخذ منهم الفداء وتركهم على شركهم فلم يجبرهم على الإسلام، وكذلك فعل بأهل مكة فإنه (ص) قال لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء فلم يقتلهم ولم يجبرهم على الإسلام، وكذلك صنع بأهل حنين.. إلى غير ذلك مما لا يخفى على كل من درس سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم.

ويشيد أحد الكتاب الغربيين وهو (آدم متز) بمستوى الحرية الدينية في ظل الدولة الإسلامية فيقول:"لم تكن الحكومة الإسلامية تتدخل في الشعائر الدينية لأهل الذمة، بل كان يبلغ من بعض الخلفاء أن يحضر مواكبهم وأعيادهم ويأمر

بصيانتهم، وان الحكومة في حالات انحباس المطر، كانت تأمر بتنظيم مواكب يسير فيها النصارى وعلى رأسهم الأسقف واليهود وعلى رأسهم النافخون بالأبواق.

ويقول جولد تسيهر:" سار الإسلام لكي يصبح قوة عالمية على سياسة بارعة ففي العصور الأولى لم يكن اعتناقه أمرا محتوما فإن المؤمنين بمذاهب التوحيد أو الذين يستمدون شرائعهم من كتب منزلة كاليهود والنصارى والزرادشتية كان في وسعهم متى دفعوا ضريبة الرأس (الجزية) أن يتمتعوا بحرية الشعائر وحماية الدولة الإسلامية، ولم يكن واجب الإسلام أن ينفذ إلى أعماق أرواحهم إنما كان يقصد إلى سيادتهم الخارجية، بل لقد ذهب الإسلام في هذه السياسة إلى حدود بعيدة ففي الهند مثلاً كانت الشعائر القديمة تقام في الهياكل والمعابد في ظل الحكم الإسلامي.

مظاهر احترام الإسلام للحرية الدينية لغير المسلمين:

1 . حرية ممارسة شعائر العبادات:

إن الإسلام يقبل بوجود سائر الأديان ضمن مجتمعه وفي ظل حكمه، حيث يمنحهم الحرية الكاملة في ممارسة شعائر أديانهم والقيام بطقوس عباداتهم، وتنفيذ تعاليمها وأحكامها دون أن يفرض عليهم شعائره وأحكامه أو يتدخل في شؤون أديانهم. وقد تعهد رسول الله (ص) لنصارى نجران بضمان حريتهم الدينية في عباداتهم وشعائرهم كما جاء في نص معاهدته لهم وفي كتابه لأبي الحارث بن علقمة أسقف نجران وهذا نصه: بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد النبي إلى الأسقف أبي الحارث، وأساقفة نجران وكهنتهم، ومن تبعهم، ورهبا نهم:إن لهم ما تحت أيديهم من قليل وكثير، من بيعهم وصلواتهم ورهبانيتهم، وجوار الله ورسوله، لا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته ولا يغير حق من حقوقهم ولا سلطانهم، ولا شيء مما كانوا عليه. على ذلك جوار الله ورسوله أبدا، ما نصحوا واصطلحوا فيما عليهم غير مثقلين بظلم ولا ظالمين[1] ".

---

[1] - محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس، بيروت، ط5، سنة 1405هـ/1985م، ص:189.

وهناك حديث يعتبره الفقهاء قاعدة وأصلا للعديد من الأحكام الشرعية ينص على حق أهل كل دين بالالتزام بأحكام وتعاليم دينهم وطريقتهم، وهو ما تعارف عليه الفقهاء بقاعدة الإلزام "ألزموهم بما ألزموا به أنفسهم".

وقد قص علينا التاريخ أن الخليفة عمر كتب بيده عهدا لأهل الكتاب بعد استيلائه على حصن (بابليون) بحماية كنيستهم، ولعن أي مسلم يخرجهم منها، وكتب أمانا للبطريق بنيامين، ورده إلى كرسيه، بعد أن تغيب عنه ثلاثة عشر عاماً، وأمر باستقباله بالحفاوة وعندما ممار إلى الإسكندرية، ولما لقي عمرا بها خطب أمامه وشكره، واقترح عليه عدة أمور تحفظ الكنيسة، فتقبلها عمر وخوّله السلطة التامة على القبط، وعلى شؤون الكنيسة.

2 ـ منع الاعتداء على دور العبادة:

إن دور العبادة تحاط بالقداسة والحماية، لأنها تنسب للخالق سبحانه وتعالى لا للبشر، وهي في الوقت ذاته أماكن تلقى الاحترام والتقدير في حياة الشعوب، وهي تمثل الجانب الروحي في حياة البشر، إذ من خلالها يتقرب العبد من ربه على الصفة المعهودة في دينه. وفي الحروب عند اشتعال النيران، يفر الناس إليها، لأنها وفق تصورهم بيوت الله، وهو متكفل بحمايتها، لذا فهي ملاذ آمن من العدو المتوقع.

ودور العبادة مصطلح غير قاصر على مساجد المسلمين، بل يتعداه ليشمل أماكن العبادة عند اليهود والمسحيين كذلك، كالكنائس والأديرة والصوامع.

وفي الإسلام يحتل المسجد دوراً محورياً رائداً، لأنه يمثل للمسلمين مكان العبادة، وقد أدى ولا يزال جامعة العلم، ومركز الإرشاد والتوجيه، وقد مورست فيه قديما عدة وظائف، منها القضاء وتنظيم الجيوش، والإشراف على شؤون الأمة، منه يرفع الآذان لاجتماع المسلمين لصلاة الجماعة، وقد نبه الرسول صلى الله عليه وسلم بفضله فقال: " **مَنْ بَنَى مَسْجِدًا يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ بَنَى اللَّهُ لَهُ مِثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ**"[1].

---

[1] – وتمام الحديث في البخاري: عن عُبَيْدَ اللَّهِ الْخَوْلَانِيَّ أَنَّهُ سَمِعَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ يَقُولُ عِنْدَ قَوْلِ النَّاسِ فِيهِ حِينَ بَنَى مَسْجِدَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّكُمْ أَكْثَرْتُمْ وَإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

والشريعة الإسلامية تولي دور العبادة كل احترام وتقدير، سواء المساجد أم الكنائس أم الصوامع وغيرها، لأن الإسلام رسالة عظيمة ودين عالمي، يتسع للجميع، وأهل الديانات الأخرى يعيشون داخل دولة الإسلام، كمواطنين لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، يعبدون ربهم على طريقتهم دون إيذاء من أحد. وإذا كان الشرع الإسلامي يسمح لرعايا الدولة أن يعتقدوا ديناً آخر، فهو من باب أولى يوفر لهم الأماكن الخاصة للعبادة، ولم ينقل لنا تاريخ المسلمين أن مسلماً هدم كنيسة أو اعتدى على المصلين فيها، لأن مثل هذا الفعل، يتعارض مع أخلاق الإسلام وقيمه. ولا تزال كنائس النصارى في بعض الدول العربية قائمة إلى اليوم بجوار المساجد، هذه يرفع فيها الآذان، وتلك يسمع فيها صوت الناقوس.

إن الإسلام يحرم الاعتداء على دور العبادة، بل ويحث على حمايتها والحفاظ عليها تقديراً لأهل الديانات الأخرى، يقول الله تعالى: "**وَلَوْلا دَفَاعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا**"[1]. يقول القرطبي في تفسيره لهذه الآية: "أي لولا هذا الدفع لهدمت في زمن موسى -عليه السلام- الكنائس، وفي زمن عيسى -عليه السلام- الصوامع والبيع، وفي زمن محمد عليه السلام لهدمت المساجد". ويضيف القرطبي أيضاً: "وتضمنت الآية المنع من هدم كنائس أهل والبيع و..".

فهذا نص صريح يلزم المسلمين بعدم هدم كنائس أهل الذمة، وهذا فيه دلالة صريحة على احترام وتقدير الإسلام لدور العبادة لغير المسلمين.

وقد جاء في كتاب عمر لأهل نصارى لدّ تأمين دور عبادتهم لا تهدم ولا تمس بسوء، ونصه كاملا: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل لُدّ، ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين، أعطاهم أماناً

وَسَلَّمَ يَقُولُ:" مَنْ بَنَى مَسْجِدًا قَالَ بُكَيْرٌ حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ بَنَى اللَّهُ لَهُ مِثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ".صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب من بنى مسجدا، رقم الحديث:431.

[1] - الحج، الآية:40.

لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر ملتهم، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها، ولا يضار أحد منهم.."[1].

وقد رفض عمر، عند دخوله المدينة أن يصلي في كنيسة القيامة، بل صلى على مقربة منها، وعندما فرغ من صلاته، قال للبطريرك: "أيها الشيخ، لو أنني أقمت الصلاة في كنيسة القيامة، لوضع المسلمون عليها أيديهم، بحجة إقامة الصلاة فيها، وإني لآبى أن أمهد السبيل لحرمانكم منها، وأنتم بها أحق وأولى".

فعمر رفض الصلاة كي لا يأتي الناس بعده، بدافع تتبع آثار الصحابة، يقولون صلى عمر هنا، فنحن أحق بهذا المكان منكم أيها المسيحيون، فقطع عمر كل ذريعة تؤول لاغتصاب حقوق الآخرين، لأن النظر في مآلات الأفعال، معتبر مقصود شرعاً. فالإسلام أجاز له الصلاة في غير المساجد، ولكنه أبى خوفاً على دور العبادة التي للآخرين، من أن تهدم يوماً أو تدمر بحجة أن فلاناً صلى فيها.

إن الإسلام يأمر أتباعه ألا يتعرضوا للمسالمين غير المقاتلين من العدو، كما ينهاهم أن يتعرضوا لأماكن العبادة عندهم، ويكفل حرية ممارسة شعائر دينهم فيها.

الخاتمة:

إن الإسلام عندما أقر الحرية الدينية إنما راعى بذلك الفطرة الإنسانية، ولأن العقيدة إنما تمارس عن طواعية واختيار وقناعة، وبهذا حافظ على كلية الدين التي هي من الكليات الضرورية التي تقوم عليها الحياة الإنسانية.

ثم إن الحرية الدينية لا توفر الحماية فقط للدين الإسلامي بل لجميع الأديان. فالإسلام يأمر أتباعه أن يحترموا ديانات ومعتقدات الآخرين، وينهاهم أن يجبروهم على ترك دينهم والدخول في الإسلام، كما أعلن ذلك في نصوص القرآن والسنة. ولعل هذا المبدأ الذي سار عليه الإسلام مع المخالفين رغم انتشاره الواسع في عهد قوة المسلمين هو الذي حفظ لغير المسلمين دياناتهم المختلفة وكتبهم المقدسة، ولم يتعرض لهم أحد من المسلمين بسوء، بخلاف ما مورس على

---

[1] - محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية، ص:494.

المسلمين من قبل النصارى واليهود في عهود مختلفة، كما في الأندلس بعد انهزام المسلمين، وفي الفترة الاستعمارية على البلاد الإسلامية.